هذا ميدان محفوف بالمخاطر ، فان فهم الطبقات النفسية للفرد امر بحد ذاته عظيم الصعوبة وان محاولة الانتقال بالنظريات السايكولوجية من نطاق الفرد الى نطاق المجموعة تنطوي على مجازفة بينة ولا سيما عندما نفكر بمشكلة الانتقال والوراثة . ولكن فرويد كان من اول من ذهب ، وبحق ، الى ان مشاكل الوراثة في البايولوجيا لا تنطبق على علم النفس الجماعي . وعلى كل فان صحة او بطلان التفسير لا يبطل وجود العلة وانما يؤكد على وجودها .

من الوقائع التي نجعلها منطلقا لنا ظاهرة الاثم التي تصاحب الوجود اليهودي (يجب ان نحاذر من الخلط بين نفسية المجموعة ونفسية الفرد فسلوك الافراد واقوالهم لا تعبر عن المجموعة بالضرورة) . لقد اشار الاستاذ ماكس فيبر بعد استعراضه للفضيلة والرذيلة في مصر ويهودا الى ان الفرق الاساسي بين اخلاقية الطرفين هو فكرة الاثم التي تطغي على الديانة اليهودية(٣). واصبح الاثم الفكرة التي تلتقي عندها آراء اليهود وغير اليهود في حديثهم عن الوجود اليهودي ولم تفترق الا في التفسير. فتش اعداء السامية عن مصدر الاثم في الاعمال الشريرة التي نسبوها الى اليهود . ورات الكنيسة ان صلب المسيح هو الاثم الابدي الذي يظل يحمله اليهود . وانبرى سيغموند فرويد ففتش عن تفسير جديد للظاهرة في رسالة « موسى والتوحيد » قائلا ان الذنب الابتدائي الذي وقعوا به هو قتلهم موسى في سيناء ، كما افترض . ونعطي فيما يلي تفسيرا اخر للمركب .

اولا لا بد للذهان* من استعداد نفسي وحساسية خاصة . وقد تكون ذلك عند العبريين اولا من شيئين : ممارسة التجارة وتضخم الانا الاعلى او الضمير . فمن المسلم به ان التاجر بما يحيط به من قلق وتشرد وحياة ارقامية ذهنية مجردة اكثر عرضة من الفلاح او الحرفي للهزات النفسية . وقد ولد هذا الشعب التجاري في ظروف قاسية اضطرته الى عبور الصحراء مرتين . القيام بذلك ومواجهة العدو تلو العدو تطلب خضوعا مطلقا لقيادة حكيمة ، لم تجد امامها غير ان تشد ازر تابعيها بسلسلة من التوجيهات الآمرة والناهية بعضها عملي وبعضها خرافي تطيري . بمرور الزمن استبدل الشعب عبء حياته اليومية بعبء التنظيم الاخلاقي الذي نسيت اصوله. لقد اصبح ضميرا لا شعوريا متضخما .

ترتبط مأساة الشعب العبري ارتباطا وثيقا بفكرة الخلود التي رادها وهام بها انسان الشرق الاوسط . وبينما سعى ابن مصر وبابل الى تحقيق الخلود لذاته فاغتبط الاول بعالم الاموات الرغيد وشقي الثاني بادراكه عقم المحاولة ، اضطر العبريون تحت الضغوط والاخطار الى السعي وراء خلود المجموعة . لا يمكننا ان نتصور احدا يسعى للبقاء بنفسه في معزل عن المجموعة في متاهة سيناء . هناك غرست بذرة خلود الشعب وتغذت بروح العصبية القومية تحت الضغط العالي وانعكست في الفولكلور العبري . وما اظننا بحاجة الى شاهد فيكاد يرتبط اسم اسرائيل بالابد والخلود حيثما وجدناه في العهد القديم . انما يجدر بنا ان نشير الى مدى تأثير ذلك على قصة المسألة اليهودية والحركة الصهيونية . فقد اكد مفكرو الحركة الصهيونية على خلود الشعب اليهودي وضرورة ذلك واشار حتى الملحدين منهم مثل سمولنسكي وللينبلوم الى « الشعب المقدس » . ودافع لوزاتو في القرن المنصرم عن اهمية خلود الشعب اليهودي لانها تنطوي على خلود الله نفسه . وبعد ان اعترف بان الشعوب تولد وتشب ثم تموت نفى تلك القاعدة عن الشعب اليهودي لانه « التجسيم الكامل للذات الالهية »(٤).

---

* Neurosis .